

الإيديولوجيا التقنية وفاعلية المعلومات في الميديا الجديدة واختزال الرأسمال الاجتماعي والقيمي.

The Technical Ideology and the Effectiveness of Information in New Media and the Reduction of Social and Value Capital.

جنح أمين أستاذ مساعد – أ – مخبر علم النفس والتربية وقضايا المجتمع جامعة محمد الصديق بن يحي – جيجل – achraf.amine18@yahoo.com	بوالعام بلال أستاذ مساعد – أ – جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي – boulaam.bilal@gmail.com
---	---

ملخص:

تعالج المقالة موضوع الإيديولوجية التي تفرضها التقنية عبر وسائطها المتعددة، وما تملكه من خصائص جعلت مضامينها ذات تأثير أدى إلى تمييع الثقافات المحلية لصالح نمط ثقافي علماني ما فتئ يفرض نفسه عبر الوسائط الجديدة ويسهم بوتيرة متنامية في الهيمنة على تفكير الأفراد وسلوكياتهم. والشبكات الاجتماعية كإحدى أهم وسائط الإعلام الجديد منحت الأفراد هامشا واسعا من التواصل والتفاعل أنتج منظومة قيمية ذات مشارب متنوعة تفتقد لمرجعية واضحة، كما أن حالي الاستغراق والاعتراب المعرفي المتزايدين التي يعيشهما الأفراد داخل هذه الفضاءات جعلتهم ينسلخون عن واقعهم، أين تم اختزال الزمن الاجتماعي التقليدي في زمن إعلامي فرض على المستخدمين للأنترنيت عموما والشبكات الاجتماعية خصوصا شكلا من التواصل تسمه الفردانية وغياب التفاعل القائم على المواجهة المباشرة والانفتاح على جميع الثقافات العالمية؛ الأمر الذي نتج عنه تشردم على مستوى الأطر الفكرية للكيانات المجتمعية العربية واختزال لرساميلها القيمية والثقافية.

الكلمات المفتاحية: الإيديولوجية التقنية، الميديا الجديدة، الرأسمال الاجتماعي والقيمي، العزلة الاجتماعية.

Abstract :

The article deals with the subject of technical ideology imposed through multimedia, and its characteristics that made its contents have an increasing impact towards the dilution of local cultures in favor of a secular cultural mode that imposes itself through new media and contributes at a growing pace

ISSN 2661-7331

مجلة دراسات في علوم الانسان والمجتمع – جامعة جيجل

رقم العدد التسلسلي 05

مجلد: 02 عدد: 04 ديسمبر 2019

to monopoly individuals thinking and behaviors. Social networks, as one of the most important new media, have given individuals a wide margin of communication and interaction, producing a value system with a variety of sources that lack a clear reference, and the increasing cases of immersion and cognitive alienation experienced by individuals within these spaces made them away from their reality, where traditional "social time" was reduced in a "media time", which imposed on internets in general and social networks users in particular a new form of communication characterized by individualism and absence of interaction based on direct confrontation and openness to all global cultures, which led to a dissociation in the intellectual frameworks of Arab communities and the reduction of their value and cultural capitals.

Key words: Technical ideology, new media, social and value capital, social isolation.

مقدمة:

«باتت مواقع التواصل الاجتماعي تشكل واقعا اجتماعيا له تأثير مباشر على الكيانات المجتمعية كلها حسب "يورغن هابرماس"، وقد اهتم "هابرماس"، على غرار كثير من علماء الاجتماع، بفكرة التنظير لهذه الشبكات قبل أن يغرم بها وبالببحث فيها علماء الإعلام والاتصال. ولقد تبنى التنظير الاجتماعي أطرا تحليلية أكثرها مرتبط بالرأس المال الاجتماعي لدراسة فاعلية هذه الشبكات" (Annica, Santdstro 2008)، إلا أننا نعتقد أن الضرورة ملحة اليوم لإخراج أطر تحليلية أخرى مرتبطة بالرأسمال الثقافي والقيمي والأخلاقي، لتجاوز حالة الاختزال التي تعيشها هذه الأطر عبر الميديا الجديدة، ولا شك أن كثيرا من الأخصائيين يعتقد أن حالة الاختزال التي تعيشها القيم والدين والأخلاق مرتبطة بحالات التأثير الكبيرة التي تمارسها مواقع التواصل الاجتماعي على مرتاديهما في علاقتها المباشرة بهم -وخصوصا مرتاديهما من فئة الشباب- حسب الدكتور "فايز الصياغ". ومواقع التواصل الاجتماعي كمستجد سيبراني له تخصيص صريح في درجة التأثير على الأطر المرجعية ذات الخلفية الثقافية والدينية والقيمية لدى أغلبية مرتاديهما من الفئة الأكثر تأثرا في المجتمع، ففي دراسة أجريت في جامعة ستانفورد الأمريكية عام 2000 على عينة واسعة تضم 4000 من البالغين من الجنسين تبين أن مستخدمي الانترنت وفي اطار زمنهم الاجتماعي يمضون أوقاتا قليلة مع الأفراد الآخرين في عائلاتهم

أو في الجماعات المحلية الأخرى قياساً بمن لا يستخدمون الانترنت، وهناك اتجاهين مهمين في هذا الصدد: الأول هو أن استخدام الانترنت يجعل المستخدمين يتعدون عن وسائل الإعلام والاتصال الأخرى، كالتلفاز والصحف، والثاني هو أن الانترنت قد بدأت تزيل الفواصل بين مجالات العمل ومجالات التعامل اليومي الاجتماعي والثقافي والفكري، وبصراحة يمكن القول أن الحياة اليومية قد تحولت الى تيار مستمر يتمحور حول شبكة الانترنت وتطبيقاتها اليوم في السوشيل ميديا، إذ لم يعد هناك عزل لهذه الشبكات عن محاور النشاط الإنساني اليومي. ولقد تعرضت مواقع التواصل الاجتماعي الى انتقادات عديدة بعد تغلغلها في أوساط جميع الشرائح الاجتماعية، وسرعة انتشارها بين مختلف الفئات العمرية، بل هناك العديد من الكتب التي صدرت في هذا الصدد كلها حذرت من هذه المواقع، وهناك من قدم توصيفاً للفيسبوك مثلاً بأنه "الدوامة الكبيرة" التي هي ماضية في ابتلاع رواد الانترنت تباعاً وما إن تبتلع المستخدم حتى تستعبده وتجعله سجيناً فكرياً وثقافياً وقيماً وأخلاقياً، فلا يكاد يخفى عنها شيئاً من أمره كبر أو صغر، يضع عليها حياته كلها راغباً راضياً مختاراً (خالد غسان يوسف المقدادي، 2011).

ولعل هذا ما يسعى لدينا بتأثير الإيديولوجيا التقنية الذي يعمل في شكل دوامة في محيط مفتوح. هذا لا يمنعنا أبداً من القول والاعتراف أن شبكات التواصل الاجتماعي هي أداة للتلاق، وهذا ما يقول به أغلب المختصين في علوم التقنية الاتصالية وعلاقتها بالثقافة وانفتاحها عليها واهتمامها بمرجعياتها المختلفة، وهي بهذا أدوات موثوقة كما يقول هؤلاء، بل ويمكن اعتماد التقنية الرقمية اليوم كقوالب للتثقيف وابتداع طرق وأساليب حياتية جديدة وسلوكيات مختلفة، أو ربما اعتبارها أداة مقبولة لنشر أفكار تعبر عن ثقافات مختلفة تدعو الضرورة العصرية الحالية إلى الاطلاع عليها والاحتكاك بها ولما لا إثراء الثقافة العالمية الموحدة في الأنماط والأطر التي تحاول دوائر مؤثرة –إعلامياً وثقافياً- التأسيس لها. ولم تعد هذه المواقع مجرد أبواق ومنابر وحوامل تتيح فقط عديد الممارسات والنشاطات المختلفة لمستخدميها، أو مجرد فضاء خاص للمستخدمين يهتمون فيه بإبداء الرأي والتعبير عن الاتجاهات المختلفة للمتصفحين على اختلاف مشاربهم اللغوية والفكرية والثقافية. ولم تعد هذه المواقع حسب هؤلاء مجرد أدوات لممارسات روتينية كالاستفتاء حول القضايا، إنما هي اليوم ذات خبرة في تكوين الأشخاص بعد أن تعززت كهيئة افتراضية تسمح بتكوين الصداقات وفقاً للمعايير الثقافية التي يختارها المتصفحون، هذا بالإضافة الى مهامها ووظائفها البديهية كالتسلية وممارسة الهوايات، وملاً الفراغ والتسلية والاشتراك في الألعاب والتسويق والاعلان والخدمات الطبية (سميرة شيخاني، 2010).

لقد ارتبطت استخدامات مواقع الشبكات الاجتماعية في غالبية الدراسات التي أقيمت في هذا الشأن بطبيعة المستخدم والإشباع التي يسعى إلى تحقيقها سواء كانت ثقافية، أو معرفية، أو نفسية، أو اجتماعية، وكل النتائج أشارت تقريبا إلى أن العديد من الشباب يقضون وقتا طويلا في التفاعل مع مجتمعات كبيرة من مختلف المشارب الثقافية والفكرية، إذ أصبح باستطاعتهم تطوير فهم ثقافي أفضل، ووصفات قيادية أقوى، بل واضح من الممكن أن تكون هذه المواقع أداة للتطور الاجتماعي الضروري للشباب العالمي اليوم، للإسهام بجدية في إثراء الاجندات الثقافية وارتباطاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وأهدافها الإيديولوجية المصلحية، في فضاء المعلومات المفتوح.

-إيديولوجيا شبكات التواصل الاجتماعي :

لقد اعتبر "يورغن هابرماس" من أهم نقاد مدرسة فرانكفورت، وقد كانت معظم آرائه النقدية منصبة على نقد الرأسمالية ونتائجها على كل المستويات، ففي كتابه "المعرفة والمصلحة" مثلا كان ينتقد "النموذج الوضعي السائد للمعرفة" وبين أنه يمثل أحد نماذج المعرفة البشرية القائم على تحقيق المصلحة" (عبد الغفارمكاوي، 1993، ص93) فالمعرفة السائدة اليوم تمتاز في علاقاتها مع التطور التكنولوجي أو ما يعرف بالتقنية، بحملها لإيديولوجيا معينة، وهي إيديولوجيا قمعية على حد تعبير "هابرماس" الذي يعد أول من طرح مصطلح "الإيديولوجيا والتقنية"، حيث رأى أن التقنية ليست شيئا محايدا، بل هي جملة من الأدوات والوسائل التي كرس نظاما عقلانيا للسيطرة والهيمنة، فقد أضحت التكنولوجيا إيديولوجيا قمعية، لا تختلف عن الأنظمة الفاشية إلا بميزة أساسية تتمثل في جعل العقل أداة لقمع الانسان (لونيس بن علي، ص21). وقد حدد "هابرماس" في كتابه "نظرية فعل التواصل" شروط التواصل لفهم الأقوال والتعابير، وقد كان عليه أن يبين إمكان التمييز بين التواصل المشوه والتواصل غير المشوه، والتواصل المشوه لديه لا يتحدد فيه كل الشروط الخاصة بالعملية التواصلية، فخط التواصل المعروف يتطلب وجود مرسل على الأقل، ورسالة ومرسل إليه، وغياب طرف من أطراف هذه العملية يشوه الفعل التواصلية، وهو الأمر الذي يمكن أن نجده في الفعل التواصلية الخاص بالميديا والذي يدخل في الثقافة الجماهيرية، إذ أنها لا تولي أهمية لا للمرسل ولا للمرسل إليه، وإنما كل الاهتمام ينصب على الرسالة في حد ذاتها وفي الغالب ما تكون رسائل الشبكات الاجتماعية مغلفة بمصلحة ما - فلا توجد رسائل عفوية- عبرها، وهذه الرسائل تتجاوز المصلحية إلى التقليل من المقدس والتعظيم على الثقافة المحلية واختزال الفكر غير الغربي. (فوزيل عدنان، ص29).

وبالتكلم عن الاختزال الذي تعمل في إطاره الإيديولوجيا التقنية فإن فاعلية المعلومات وغزوها للفضاء السيبراني في الميديا الجديدة قد تفتت الرأسمال الاجتماعي والقيمي من خلال ما ينبثق عن عملياتها من إحداث لما يعرف بـ «التشيؤ والاعتراب» اللذان تكلم عنهما "أدورنو" و "هوركايمر". ويرى "عبد الغفار مكاوي" أن مدرسة فرنكفورت أنتجت مقولات "التشيؤ" و "الاعتراب"، وهي تمثل نواة مركزية يدور حولها الجانب الأكبر في مناقشات نقاد هذه المدرسة، وتحليلاتهم للمجتمع الرأسمالي والصناعي (العقلاني) الحديث، هذه المقولات تعتبر الإنسان في ظل الرأسمالية مجرد جزء ضئيل من جهاز الإنتاج الهائل، وهو قابل للاستبدال دوماً. ويشير "أدورنو" و "هوركايمر" إلى انحطاط العمل الفني في ظل المجتمع الصناعي إلى حضيض السلعة في سوق الاستهلاك والمزايمة. ومن الأسباب التي يضعها الناقدان بيروقراطية الإدارة، وصناعة الدعاية والاعلام، ووسائهما الجماهيرية (عبد الغفار مكاوي، 1993، ص 93)، فالتلفزيون والكمبيوتر حسب خبراء الإعلام يؤثران سلباً على الأعمال الفنية ويجعلان منها سلعة قابلة للاستهلاك والمزايمة، مثلها مثل أية سلعة في السوق (الإشهار)، وهذا يصب في المصلحية والإيديولوجيا التقنية التي شيأت الإنسان ونزعت عنه الغطاء الإنساني، وأنزلته منزلة أقل شأنًا من منزلة المعلومات، التي أصبحت أهم أداة في التسويق للأفكار وللبيع والخدمات، مما يجعل الرأسمال الاجتماعي والقيمي متخللاً بالمصلحية التجارية ذات الأهداف المادية المحضة، التي لا تعترف بالقيم والثقافة والأفكار كرأسمال حقيقي يفوق في قوته الرأسمال المادي.

بالإضافة إلى أن "برنارد روزنبرغ" قد تكلم عن الثقافة التدميرية في مستهل إشارته إلى الإيديولوجيا التقنية وفعاليتها في الميديا الجديدة واختزالها للرصيد الاجتماعي والقيمي، ويعتقد "بيرنار روزنبرغ" أن "الثقافة الشعبية ووسائل الإعلام والثقافة الجماهيرية شديدة التدمير لسلامتنا، أفراداً وجماعات ومجتمعات، ولا شك أن شبكات التواصل الاجتماعي ملجأ المتمرسين في الثقافة الشعبية والمتكلمين بها والمدافعين عنها والأوفياء لها. ويرى "أرثر أسا بيرغر" أن الثقافة الجماهيرية – وقد أصبحت ممكنة بفضل التكنولوجيا الحديثة -هي التي تكمن في جذور مشاكلنا، لا شخصيتنا الوطنية، أو نظامنا الاقتصادي، والثقافة الجماهيرية حسب نتيجة ضرورية ومنطقية لتطور التكنولوجيا الحديثة (أرثر أسا بيرغر، ص 114).

"روزنبرغ" أقر أن التكنولوجيا ساهمت بشكل كبير في ظهور وتطور وتحرر الثقافة الجماهيرية وأن ما يسمى اليوم بالثقافة الجماهيرية هو مركز المشاكل التي تتخبط فيها المجتمعات على كل الأصعدة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، وطبعاً وتأييداً لما قاله "روزنبرغ" يمكن القول أن هذا كله لا يساعد على نبذ الإيديولوجيا عبر التقنية بقدر ما يساهم في تغلغلها وقد ترسخ فاعلية المعلومات

المتعلقة بالثقافة الجماهيرية بشكل أكبر في حال تم تحرير الثقافة الجماهيرية من حدودها المفتوحة والانصباع لنداءات المحافظة على بعض الخصوصية الثقافية وامتزاجها ببعض الأنماط الثقافية الأخرى دون خلخلة الجوهر الثقافي التلاقي لها، حتى لا يختزل الرأسمال الاجتماعي والقيمي للمجتمعات التي تتمسك بالصلابة القيمية والثقافية والخصوصية الثقافية الوحيدة.

ودون الخروج عن هذا الإطار الذي يتناول إيديولوجيا شبكات التواصل الاجتماعي ومصلحتها والاختزالية التي تمتاز بها معلوماتها للرأسمال الاجتماعي والقيمي، سنتطرق أيضا إلى "بيروقراطية التقنية" التي تكلم عنها "ماكس فيبر"، إذ نقد ماكس فيبر الثقافة الجماهيرية من خلال نقده للتقنية التي يمتاز بها هذا العصر، ونعتها بـ "القفص الحديدي"، إذ أن نظامها التقني والبيروقراطي يحدد حياة الأفراد الذين ولدوا داخل هذه الآلية بقوة لا تقاوم، وبأس شديد، وقد نعت "فيبر" معاصري التقنية بـ "الاختصاصيين بلا روح وبالشهوانيين بلا قلوب" (محمد عابد الجابري، 2010، ص 139-140). وقد هاجم "فيبر" كل من يدافع عن الثورة التكنولوجية أو التقنية، ومنهم "مارشال ماركسهاوس"، إذ يراه اختصاصيا بلا روح، ويعتقد أن اختصاصي التقنية والتكنولوجيا بلا صفات إنسانية، بمعنى أنهم بلا شعور وبلا شهوة، ويمنح أيضا صفة البيروقراطية للتقنية، فهي تعمل بمبدأ الاختيار والتفاضل بين المبدعين وكذا الأعمال الإبداعية التي ولدت في رحم هذه التقنية، والتي تقوم على دعائم وآليات تقنية، وبالتالي فهي الأنسب (فوضيل عدنان، ص 30). أما "بيار بورديو" فقد تكلم عن العنف الرمزي، إذ يرى أن من يملك يحكم ويسيطر، ويرى أن ملكية وسائل الإنتاج وأدوات التحكم والسيطرة انتقلت إلى الدولة التي كان يسيرها ويديرها شرائح اجتماعية بيروقراطية حلت محل الملاك والمسيطرين القدماء، وبدخلنا مرحلة من مراحل تطور المجتمع والتي يطلق عليها "مجتمع المعلومات" طرح "بورديو" سؤال من يملك المعلومات؟ أو المعرفة والأنس العلمية والتكنولوجيا؟

لقد قام "بورديو" بدراسة حول التلفزيون بوضعه نقطة تحول نحو امتلاك نسبة كبيرة من الجماهير للمعلومات، ويرى أن التلفزيون يكشف عن خطر كبير جدا يهدد مجالات مختلفة على مستوى الإنتاج الثقافي من فن وأدب وعلم وفلسفة وقانون، ويرى "بورديو" أن التلفزيون يحمل الكثير من المعلومات الخطيرة، خاصة وأنها تدخل في تشكيل الثقافة الجماهيرية، وهي إذا تمارس نوعا من العنف الرمزي. ونعتقد أن ما ينطبق على التلفزيون كتقنية متطورة ومؤثرة يمكن أن ينطبق حصرا على الانترنت وتطبيقاتها المتمثلة في شبكات التواصل الاجتماعي، التي تزخر بالكم المتعاطم من كل التراكم العنفي اللفظي وغير اللفظي، أو العنف الرمزي الذي تجسده كل تلك الصدمات الثقافية التي تنجم عن

تلاقيها، فعدم انسجامها عادة يجعل منها مادة للتناحر والتنازع والتفاخر الثقافي الذي هو أبلغ سمة عن العنف الرمزي، الذي يمكن أن يتجسد أكثر كلما تم التلاقي والتفاعل ومن تم التنازع الثقافي عبر التقنية التفاعلية الديناميكية، وهذا يختزل الثقافة ويجعل المتناحرين بها ولأجلها لا يباشرون نقاشات أخرى في خضم تفاعلاتهم الشبكية، علما أن العنف الرمزي من وجهة النظر القيمية فعل لا قيمي ويختزل كل القدرات الإنسانية ويحد منها. (بيير بورديو، 2004، ص ص 26-27).

ويمكن لرأي "جميل حمداوي" أن يختلف عن رأينا في الاهتمام بالإيديولوجيا التقنية وفاعلية المعلومات في الميديا الجديدة واختزال الرأسمال الاجتماعي والقيمي، إذ تطرق إلى ما يسمى "بالنعايش النخبوي الجماهيري"، الذي يرى أن المواقع الرقمية أنتجت تفاعلا ثقافيا غنيا بالحوار والإبداع والنقد والترجمة والمثاقفة، وأصبحت هذه المواقع مصدرا أساسيا في البحث والتوثيق، وبالتالي ستتحول الثقافة في المستقبل القريب إلى ثقافة رقمية تعتمد على منابر الإعلام الرقمي وشبكات الانترنت. ويرى أن الفأرة (la souris) أصبحت رمزا لفعل التلقي عن طريق النقر (cliquer) ترحح فكرة المتلقي التقليدي على حد قول «مصطفى الضبع» متجاوزين الفكرة السائدة بأن المتلقي هو القارئ فقط، وهذا المفهوم لا يتناسب تماما مع عصر الكمبيوتر الذي يعتمد على آليات جديدة مغايرة تماما عن الآليات القديمة، لذا فإن مجال الكمبيوتر وتطبيقاته وشبكة الأنترنت تخلق متلقيا جديدا تنهي فيه أشكالاً أخرى للتلقي. (مصطفى الضبع، 2005، ص 12).

- القيم والأخلاق والتحدي التكنولوجي من وجهة نظر إعلامية بـسيكواجتماعية:

أصبح ظاهرا من خلال التجارب المتراكمة أن الأفراد باتوا يعيشون في خضم نمط من التواصل تطغى عليه الفردانية شيئا فشيئا، وفي هذا الصدد يؤكد الإعلاميون والسوسيولوجيون والسيكولوجيين على أن المستحدثات التقنية تقوي الفردية لدى الإنسان على حساب الروح الجماعية، بل وتقلل من كثافة الاختلاطات المباشرة، ولا شك من أن موجة التكنولوجيا والمعلوماتية تبرز اليوم علنا ضروبا من الاغتراب والاستلاب والارتهان أمام تطبيقاتها ومضامينها، ولاسيما ما يسمى "باغتراب المعرفة" و"الاغتراب المعلوماتي"، الذي من نتائجه، شعور الفرد بالدونية أحيانا أو بالتقصير، أو بالنقص اتجاه بعض إمكانات التقنية المتنامية باستمرار. ويرى البعض أن المنطق الآلي الصارم وتعامل الإنسان معه قد يؤديان مع الوقت سيكولوجيا إلى التزمّت والصمت الدائم وفقدان الشعور بالخيال الجميل وفقدان حس الإبداع أو المقدرة عليه، وكلنا نعي أهمية الخيال والأحلام واللاشعور والوعي واللاوعي وكافة أشكال الخروج على المنطق والمألوف، ولولا ذلك لما اطلعنا بأهمية كل جديد في تاريخ الإبداع والاختراعات البشرية العجيبة. ومن المظاهر المنتشرة في

عصر المعلوماتية والتكنولوجيا، تلك العزلة الاجتماعية لكثير من الأفراد اليوم، فشبكات التواصل الاجتماعي حتما تشارك اليوم في تنمية العزلة الاجتماعية وفي إنشاء واقع اصطناعي بديل للواقع الفعلي، وفي إتاحة الفرصة لغزو الألعاب الإلكترونية لحياة الكثيرين، كذلك أصبحنا نرى كيف يتم نمذجة الواقع إلكترونيا، ولاسيما في ظل انتشار مواقع التواصل الاجتماعي جماهيريا، كما أن من بين تحديات التكنولوجيا الاتصالية العزوف عن العادات والتقاليد، بل وعن قيم الدين، حيث أن أكثر برامج التوجيه الديني والقيمي تأتي في أوقات غير مناسبة - أو لنقل فوضوية وبلا رزنامة وبلا مواعيد- وتكون مباشرة وفوقية وتذيرية بصورة جازمة، وهذا طبعا مقابل عروض شيقة للرقص والتدخين والمخدرات وخوارق البطل السينمائي أو المطرب العالمي، الذي تتحلق حوله الحسان، ويتلمسن جسده ويقبلنه أحيانا وهن شبه عاريات. إضافة الى ذلك هناك ظاهرة شيوع الابتذال في التفكير وتسطيح الفكر والإباحية وإهدار الوقت وفساد الذوق، والشعور بالدونية لعدم استطاعة الشاب تحقيق ما يقوم به البطل السينمائي من خوارق. وقد تؤدي بنا التكنولوجيا الاتصالية (شبكات التواصل الاجتماعي) الى سوء الاستخدام الأخلاقي، إذ أن البعض قد استخدم الأنترنت وشبكتها لوضع معلومات أو الإعلان عن أنشطة منافية للأخلاق العامة والآداب الاجتماعية المتعارف عليها، أو تلك المخالفة للدين. (حواس محمود، 2002، ص ص 247-248)

ولهذا نجد "فاروق حمادة" مثلا يجد في الأخلاق الإسلامية ملاذا آمنا، حيث يرى أن الأخلاق ذات الخلفية الإسلامية هي المسحة الظاهرة واللحمة الباطنة لعقائد الإسلام ونظمه وتشريعاته وآدابه، وإليها تستند كليات هذا الدين وجزئياته، وعلى هديها تتم مقاطع الحقوق، ومفاصل المعاملات وصادق المجاملات، وظاهر اللقاءات والاتصالات بين الناس، وأن الأمم لا تصاب بمصيبة أعظم من مصيبتها في أخلاقها، ولهذا عظم الله تعالى أمر الأخلاق في القرآن الكريم، وأكد رسوله - صلى الله عليه وسلم- في حديثه الشريف، وأولاه علماء الإسلام ومفكروه عبر العصور والحقب عناية أيما عناية، وأكدوا عليه أيما تأكيد، حتى أصبحت ترى أخلاق الإسلام ماثلة في كل جوانب المعرفة الإسلامية وعلومها، ومظاهر الحياة العامة ومعطياتها.

ورأي "فاروق حمادة" هو المنطق بحد ذاته، بل أنه القول السديد الأقرب الى الفطرة الإنسانية، غير أن مستجدات التقنية ومعطياتها ومغرياتها تجعل من تقفي آثار الأخلاق عبرها صعبا للغاية إلا في حدود ضيقة، أين نجد قلة من المشاركين في سلسلة التفاعلات التي تزخر بها شبكات التواصل الاجتماعي مهتمين بالأخلاق والدين وترجمة معانيها الى ألفاظ وأقوال صريحة تدعو الى اتباعها كأفضل وجوه الحق على الإطلاق. وإن كانت المنفعة تأتي عادة مع الأقلية وليس مع الأكثرية، فإن ذلك لا

ينطبق على شبكات التواصل الاجتماعي التي تغلب عليها النزعات المادية والانتقادات للواقع، وتسودها تلك الروح العنصرية والسلبية الكبيرة والشعور بالدونية وبالنقص، والشعارات المقللة من شأن المسلمين وكذا طغيان الصراع غير الصحي ذي الميولات الضيقة على حساب الكل الجامع، وهذا لا يساعد طبعا على الاستقرار والتطور والرفق الفكري والاعتناء الثقافي الذي يؤدي الى تشكيل الأخلاق الإنسانية التعايشية. (فاروق حمادة، ص ص 05-06)

لقد عرف "لوبون" أن الأخلاق هي الأساس، وأنها الشعلة التي لا بد أن تضيء مسار البشرية في حضارتها الرقمية، غير أن تحقيق ذلك يبقى من الصعوبة بمكان، ولا شك أن هناك كثيرا من المتربصين بالأخلاق عبر شبكات التواصل الاجتماعي، فالعقل الرقمي عقل موجه لتحقيق غايات الانفتاح الكلية والتحرر من الإلزاميات والنواهي والإكراهات والأوامر الأخلاقية والدينية، والدعوات إلى الانفتاح تشوبها كثير من المغالطات التي تستدعي النظر والتحريض، وإشكاليات التنوع في عمليات اختراق الأخلاق والدين عبر هذه المواقع تطرح أسئلة كثيرة متعلقة بمصادرها الحقيقية وغاياتها، ولا يمكن للأخلاق الإسلامية والمثل الأعلى ذي الصبغة الإسلامية أن يلتقي مع تلك المتحررة من فكرة التوحيد ومن فكرة أن الكون مسير من قوة إلهية تتجاوز كل القوى، وهي قوة خيرة لا تشوبها ناقصة، وهي قوة حكيمة تروم الخير للناس أجمعين. (غوستاف لوبون، ص 172).

إن هناك اليوم من يرى بضرورة بناء الأخلاق بعيدا عن الدين، وهذه إشكالية عويصة تظهر قصورا في النظر، لأن محاولات بناء الأخلاق بمعزل عن المثل الدينية هي محاولات فاشلة، لأنها تقدم الفكرة الخلقية حتى وإن كانت صحيحة، بينما لا تبرز المثل الأعلى الواضح، ولا تقنع نوازع الفطرة الإنسانية، وقد حاول هذه المحاولة عدد من الفلاسفة والمفكرين، ولهذا كانت الحقيقة القرآنية في المجال الأخلاقي واضحة، إذ الانبياء والرسل كانوا يجسدون المثل الأعلى في أشخاصهم وسلوكهم وسييرتهم، وكانوا يوجهون الأمم والشعوب الى عدم تقديسهم وعدهم هم مصدر المنهج الأخلاقي، بل كانوا يؤكدون أنهم مظهر إنساني يتجسد فيه المنهج الرباني، ولذلك كانوا دائما يهدون الى أقوم السبل وأشرف الأعمال ويربطون الناس بالفكرة وليس بالشخص، تماشيا مع ما جاءه القرآن كما في سورة آل عمران في الآية 144، اذ يقول الله تبارك وتعالى: " وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين". والحقيقة أن الأمم مهما تباينت وتباعدت فإنها تتفق جميعها على كثير من الحقائق الأخلاقية وهذا دليل على أن التفكير الأخلاقي قديم مصاحب للإنسان سواء كان في حضارة راقية أم حياة بدائية بسيطة، ولهذا كان البحث قديما في أصل الشعور الخلقي هو فطري أم مكتسب، وفي

المقياس الخلقي وفي الخير والشر، والفضيلة والمسؤولية الأخلاقية. وقام من مجموع هذه المسائل ما أطلقوا عليه (علم الأخلاق) وعرف بأنه: "علم بالفضائل، وكيفية اقتنائها، للتحلي بها وبالرذائل وكيفية توقفها والتخلي عنها" كما يرى الطبراني. ومن وجهة نظرنا الخاصة يمكن اقتناء مكارم الأخلاق والأفكار الدينية المساعدة على نهج حياة صادقة، وذلك لوجود مصادر تنشر دوريا أو من اختصاصها الترويج للفكرة الأخلاقية والدينية. الخطير جدا في كون البعض من رواد الشبكات الاجتماعية غير مؤهلين لتلقيها لوجود حواجز لغوية أو فكرية أو ثقافية أو لغوية لديهم، أو لوجود موانع عصبية في تقبل واستقراء هذه الفكرة. وهناك أخطار أخرى مرتبطة بمصدر المعلومة وربما بأغراض صانعها ومروجها، ولذلك تجد كثيرا من الرواد على بساطة تفكيرهم أو فهمهم المحدود للواقع وارتباطاته بالتأويلات الدينية وخلفياته الأخلاقية تجده يلقي إليه بزخرف القول فيتلقى المعلومة على نحو مخالف لسياقها فيسلك سلوكا صائبا في نظره وغير سوي في نظر العقلاء، فيسن سنا سلبية سيئة فيجعل لسلوكه اتباعا وروادا فتنتشر البدع والخرافات، فتكثر البدعية ويصير المجتمع سواء كان صغيرا أو كبيرا إلى التشرذم والتفسخ. (الإمام الطبراني، 1987، ص ص 13-14)

وهناك من يحتج بأن هذه الفكرة مبالغ فيها، فالنبي صلى الله عليه وسلم بعث والعرب على جانب من المفاهيم الأخلاقية القريبة من الفطرة، وقد تسلسل بعضها إليهم من هدي الأنبياء، وبعضها من مواضع المجتمع والبيئة، وقد كانت المروءة مثلا هي جماع هذه الفضائل، وهي تقوم على دعامين أساسيتين هما الشجاعة والكرم، وكانت المروءة – شجاعة وكرما- مناط فخر العربي، ومعقد العز لديه، يضحى في سبيلها بكل شيء. يقول الدكتور جواد علي: "وتتمثل المثل الجاهلية العليا في المروءة، وقد فسرت المروءة بأنها كمال الرجولية، ومن المروءة الحلم والصبر، والعفو عند المقدرة، وقرى الضيف وإغاثة الملهوف، ونصرة الجار وحماية الضعيف. وكان العرب يتمسكون بالفضائل ويضحون من أجلها بحثا عن المكانة والرفعة وانتشار العزة والذكر الحسن في القبيلة وغير القبيلة، وخوفا من العار والاحتقار أن قصروا وتهاونوا في حق هذه المثل، ثم جاء الإسلام فنظمها وأعطاه صبغة جديدة فلم يعد الكرم مثلا لحسن الأحدث، والشجاعة لإظهار البطولة، بل أصبح القيام بالمكارم والفضائل امتثالا لأمر الله تعالى ورجاء ما عنده. (الإمام الطبراني، ص 15): "إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا" الدهر 09، وأصبحت البطولة والشهامة في سبيل الحق والخير دون اعتداء أو ظلم،: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" البقرة 190.

ويبدو أيضا أن الرأي الأول ليس مبالغا فيه، إنما هو قراءة بسيطة لما هو موجود فعلا، والتجربة التي يكتسبها أي متصفح ومشترك في الشبكات الاجتماعية يرى أن القول مرجح، وأن هذه الشبكات هي نموذج لأحدوثة جاءت على حين غرة، لذلك كان التأثير بها كبيرا والتماهي معها كبيرا. وقد أظهر أغلب المتابعين لها والمتصفحين لصفحاتها والمبادلين لمضامينها حاجاتهم ورغباتهم كلها عبرها، وانكشفت اهتماماتهم أمام الأصدقاء، وتجلت دوافعهم. وكل السياقات التي ساهمت في إشباع بعض من حاجاتهم النفسية والعاطفية والاجتماعية والفكرية والثقافية هي سياقات مرتبطة بالزمن الرقمي المعقد في تركيبته التكنولوجية والسهل في الاستخدام، وما ساعد على ذلك طبعا سهولة التقنية واتاحتها للجميع (للمتعلم وغير المتعلم)، كما ان الانفتاح الذي يعرفه المجتمع العربي والجزائري على غرار الانفتاح العالمي والعولمة التقنية والاعلامية جعلت من الفوارق الجنسية اليوم تزول وهذا ما جعل العدد المرتبط بالمستخدمين وحجم الاستخدام يتضاعف على منحنى متعاضم. ولعل انفتاح المجتمع الجزائري على الخارج في الألفية الثالثة بفعل التسهيلات التي قدمت في مجال استخدام التقنية مع هامش حرية التعبير التي تعرفها البلاد اليوم، ضف الى ذلك التحسن الذي طرأ على الوضع الاقتصادي لدى كثير من شباب اليوم، كل هذا ساهم في تجاوز كثير من التعقيدات المجتمعية ذات المغزى الديني والأخلاقي والأسري من طرف كثير من الشباب الجزائري من الجنسين، وهذا ليس انجازا بقدر ما هو زيادة في كم المتحررين من الفكرة الدينية والأطر الأخلاقية التي ساهمت شبكات التواصل الاجتماعي في إحداثها بشكل كبير. إذا يمكن القول إن هناك فعلا اشكالية متعلقة بتناول القيم الدينية والأخلاقية عبر شبكات التواصل الاجتماعي في العصر الرقمي، ويمكن تحليل ذلك اعتمادا على فكرة "برغسون" الذي يرى أن هناك نمطين من الاخلاق. (محمد عبد الحفيظ، 2005، ص 65)

النمط الأول هي الأخلاق المغلقة والنمط الثاني هي الأخلاق المفتوحة، فالأخلاق في المجتمعات المغلقة ترتبط بعادات المجتمع، وكل عادة من هذه العادات تضغط على إرادتنا، وإن هذه العادات يعضد بعضها بعضا، وإنها ليست منفصلة، بل إن هناك اتصالا بين هذه العادات، ونتيجة هذا الضغط يتبلور بداخلنا جملة من العادات ترتبط بها، وهي شبيهة بالغريزة التي أوجدتها الطبيعة، وإن هذه الأخلاق المغلقة هي أخلاق ثابتة لا تتغير، وهي تدعى في كل لحظة أن وضعها الراهن هو الوضع النهائي، وأن هذه الاخلاق تتضمن عادات غير شخصية، وهي الطريقة التي أرادت لنا الطبيعة بأن نقوم بتبني عادات الجماعة، تتم هذه الطريقة تلقائيا وآليا، طالما شعر الفرد باندماجه في الجماعة، وهذه الأخلاق تكون عصبية على الاختراق عادة بحكم طبيعتها المتماسكة خصوصا إذا ما عزلت عن التداول عبر الميديا الجديدة، ولم يتم التأثير عليها بفعل التطورات الهائلة لتكنولوجيا الاعلام والاتصال وما

انبتق عنها من تطورات خصوصاً في الانصال الشبكي، وهناك النمط الثاني، وهو الأخلاق المفتوحة، التي تعبر عن حالة عاطفية، وهنا لا يقع الفرد تحت ضغط بل يتغير الموقف الى جذب، وهذه أخلاق تطلع يمثلها قادة الانسانية العظام الذين حطموا الحدود وقهروا الحواجز، وهي أخلاق متحركة ومنطلقة الى الأمام، فالتحرك يمثل نسيج وجودها، وهي أخلاق إنسانية تجسدت في شخصيات متفردة، ولها وجود في كل الأزمنة، ولا يقتصر وجودها على زمن دون غيره، وقبل أن تعرف الانسانية القديسين في المعتقد المسيحي فقد عرفت حكماء اليونان وأنبياء بني اسرائيل وشخصيات بوذية وغيرهم كثيرين، وأعظمهم رسول الله الذي كان الناس يقتدون به ولا زالوا. (محمد عبد الحفيظ، ص66). والأخلاق الجماعية اليوم في العصر الرقمي أصبحت متداولة كثيراً، ويتم صياغتها وفقاً للغايات التي يريدها القائم بالانصال أو (المتصفح) وأهدافه، وقلما نجد استقراراً اليوم على الفكرة نفسها المفسرة لهذه الأخلاق، والتباين أصبح السمة الغالبة في تعريفها والاتفاق عليها لدى مختلف رواد الشبكات الاجتماعية، والتنازع حولها أصبح كبيراً. وبفعل التغيرات الطارئة عليها نجد أن رواد كثيرين يصيهم الحنين إلى القيم الأخلاقية والدينية القديمة التي كانت تنظم العمليات الاتصالية بطريقة سلسة وباحترام تام وبلا متابعات أخلاقية لمعانيها، وفوق ذلك بلا تأويلات أو تحريف لمغزاها. وبالنسبة للأخلاق الفردية، فقد أصبح مثار جدل، كنتيجة لطغيان الحرية اللفظية والفكرية والاعتقادية لدى رواد الشبكات الاجتماعية وتلاقهم في مناقشة ومعالجة اشكالات تطرح اختلافات كثيرة في بعض الأفكار الدينية والأخلاقية، ما يجعل بعض التعليقات أو الآراء في كثير من الأحيان تخرج عن المألوف، بفعل الضغط الذي يمارسه المتعصبون لفكرة ما، لذلك كثيراً ما تكون ردود بعض الرواد عنيفة جداً تأتي بأفكار شاذة غالباً ما تكون كخلاصة لتأثيرات أو انفعالات عاطفية سريعة، والأخطر أن تلك الآراء المغلوطة والمنحرفة والشاذة تبقى محفوظة في جدر المتصفحين الالكترونية وصفحاتهم فيطلع عليها المشتركون والأصدقاء مباشرة دون حواجز ما يصيهم بالدهشة و يردون عليها بنوع من العنف اللفظي والرمزي وبآراء أكثر تطرفاً وأكثر عصبية وهكذا دواليك، مما يجعل العملية الاتصالية ذات المغزى الأخلاقي والديني غير قارة، بل بالعكس نشطة على نحو يؤدي إلى تحقيق التشوه الاتصالي والأخلاقي والديني.

ويمكن القول إنه من الضروري أن تواكب الأخلاق بشكل عام مراحل تطور العلوم، ولكن أهم اشكالية اعترضت فلسفة الأخلاق بوجه التحديد هي النتائج التي أفرزتها التطورات التقنية الحديثة في عصر المعلوماتية، إذ أن النتائج لا تكثر في كثير من الأحيان إلى مؤداها في مجال الأخلاق طالما تحقق ربحاً آنياً، والربح هنا معنوي أكثر من كونه مادي. وقد صار لزاماً علينا ، طالما أن العلم يطلب من أجل

نتائج، أن نتحقق من أثر هذه النتائج مستقبلا على الفرد والمجتمع، ولا يمكن الحكم على أي نتيجة أو غاية للعلم إلا من خلال فلسفة الأخلاق التي تضع معايير الفضيلة ضمن جدول بياني تراتبي يأخذ بأعلى مستويات الأخلاق في أي عمل نزولا إلى أخف الأضرار على الفرد والمجتمع - وهذا صعب فيما يخص قياس الفضائل وعددها وحصرها وتعريفها- عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وذلك بفعل التباين في مصادر الأخلاق والدين، فما يعتبر أخلاقيا لدى البعض لا يعد كذلك لآخرين، وما يراه المؤمن بدين التوحيد لا يراه المؤمن بالديانات الوضعية، غير أن الشيء الجيد هي كون تركيبة مجتمعاتنا العربية والإسلامية تخضع لمنظومة أخلاقية تتمثل في المعتقدات والقيم والأعراف ذات المنبع الاسلامي القرآني والسني والإجماعي والقياسين، غير أن هذه التركيبة تجعل الفرد المسلم في القرن الحادي والعشرين أمام مفترق طرق في تقبل نتائج العلم الحديث أو رفضها، وهذه الضبابية سريعا ما ستزول خصوصا عندما يعي الأفراد العاقلون أن الدين والأخلاق لا تتعارض والعلم، بل إن من صفات العلماء كلهم على اختلاف مشاربهم العلمية أناس متخلقون وعلى درجة كبيرة من الانضباط الأخلاقي وحتى الديني، وإن كانت إمكانات التواصلية ترتبط بعناصر أخرى نفسية واجتماعية وثقافية وتقنية...الخ.

(ياسين حسين الويسي، دس، ص03)

ويمكن القول أيضا كرأي مخالف أنه وإن كانت هذه المنظومة لها سلطة على عقول الكثيرين في مجتمعاتنا، إلا أن هذه السلطة بدأت تفقد سيطرتها شيئا فشيئا، عند ذلك نعود إلى فلسفة الأخلاق باعتبارها الحكم العدل في قبول هذه النتائج أو رفضها، حيث أن قياس الفضائل تندرج بمدى خدمتها للإنسان والتميز بين الخير والشر، فالخير هو ما يكون به صلاح الفرد والمجتمع والشر عكس ذلك، ويبقى هذا الرأي راجحا سواء تغيرت البيئة أم بقيت على حالها (البيئة الطبيعية أو البيئة الرقمية)، فالأخلاق تبقى أخلاقا مهما حدث، ولكل منا أخلاقه الخاصة، ومن هنا كان المثال الأعلى الذي يجب على الإنسان التطلع إليه في استخدامه للتقنية ولشبكات التواصل الاجتماعي هو خير البشرية في ارتباطه بحقيقة البشرية، مع تبيان أن الدين والأخلاق الإسلامية تريد فعلا الخير للبشرية، وأن هذه هي حقيقة القيم الإسلامية، وما دام العصر الرقمي عصرا تقنيا وعلميا بامتياز، فإنه بطرحه لإشكاليات قيمة وروحية قد أفرز إشكالا جديدة من القيم تعكس الإمكانيات التي وفرها هذا العصر الرقمي للحضارة الإنسانية عبر التحول الرقمي الكبير وسماته، التي تتميز بالفردية لا الجماهيرية وبالفرضية التي تخلو من المواجهة بين الناس وجها لوجه، فضلا عن التفاعلية والفورية (on line) والسمة الأخيرة تعد السمة العامة التي تميز مجتمع المعرفة الرقمي عن مجتمع العالم الحقيقي.

(تيسير شيخ الأرض، ص17)

وقد كانت الأخلاق في العصور الحديثة السابقة للعصر الرقمي أو القيم الأخلاقية في عصور ما قبل الحداثة، وفي نطاق التأمل الفلسفي، كانت تركز على المعايير التي تؤكد على سيطرة العقل على قوى الانفعالات النفسية والجسدية لاسيما في سياق التعامل مع الذات ومع الآخرين فضلا عن التأكيد على الهيمنة الروحية على الجسد وعالم الدنيا، وهو ما نلمسه جليا في العصور الدينية. (كريم حسين الجاف، ص158). وإذا ما انتقلنا إلى عصر آخر وهو عصر الحداثة فإن القيم الخلقية للمجتمعات قد تبدلت نتيجة للتحويلات الكبرى التي تعرضت لها الحضارة الغربية بعد هيمنة النزعات الإنسانية والعلمية، وانبثاق الثورة الصناعية والانتاج المادي، مما أدى إلى اكتساء القيم بعدا نفعيا وأداتيا عند التعامل بين الناس، ونجد ذلك واضحا في فلسفة الكتاب البراغماتيين أمثال "ساندرس بيرس" و"ويليام جيمس" و"جون ديوي". (ياسين حسين الويسي، ص68). أما عصر ما بعد الحداثة فقد انقسم إلى قسمين أو مرحلتين: الأولى عصر ما بعد الحداثة المبكرة والمرحلة الثانية لما بعد الحداثة أو المرحلة المتأخرة لما بعد الحداثة، فأما المرحلة الأولى أو المبكرة فقد برز هذا العصر كرد فعل على مشروع الحداثة الغربي، وأكد الخطاب الفلسفي على القيم الخلقية ذات المضمون الوجودي الذي يستند على قاعدة الفردية، وفي إطار الحرية والمسؤولية، وهذا ما نجده في كتابات "نيتشه"، و"هايدغر"، و"سارتر"، و"ميرلوبونتي"، فضلا عن تأكيد هذا العصر على القيم الأخلاقية ذات المضمون الجمالي، الذي يخلو من المنافع الذاتية، وهذا ما نجده في كتابات "أدورنو" و"هوركايمر" و"والتر" و"بنيامين" و"ماركيز" التي جاءت كرد فعل عنيف على العقلانية الأداتية التي انتهت إليها مشروع الحداثة الغربية. أما المرحلة الثانية لما بعد الحداثة أو ما بعد الحداثة المتأخرة أو "العصر الرقمي" والذي يعد عصرا للتحويلات الحضارية الكبرى، لما رافقه من ظهور نمط جديد من أنماط الوجود الإنساني، يعتمد على إبداع العوالم التي شكلت له مشهدا تواصليا أدى إلى بروز ما يطلق عليه (الإنسان السيبراني)، ذلك الفاعل الاجتماعي الجديد الذي أصبح العالم كله ميدانا لنشاطاته النظرية والعملية والترفيهية، مما يستدعي قواعد تعاملية جديدة، أي قيم خلقية تتلاءم مع طبيعته. (ياسين حسين الويسي، دس، ص 13-14).

يمكن التأكيد أن من أهم مظاهر الحداثة الجديدة ظهور هذه الوسائل التقنية الفريدة التي تتخذ من التفاعلية مغزلا لأبجديات التفاعل الإنساني الجديد الذي يهدف إلى مزج المكونات البشرية ببعضها البعض وإحداث ذلك التكامل الفكري والاندماج الثقافي والتلاقي الحضاري، وهذا متاح لقلة تؤمن بذلك، وغير متاح للأغلبية التي لها حصانتها الثقافية وصلابتها القيمية الدينية والأخلاقية. ويمكن القول أن وحدة المعلومات وعدم مركزيتها تساهم على منحى معين في توحيد الخبرات الثقافية،

فالمجتمع العالمي يشهد حتما منذ العقود الثلاثة الأخيرة من القرنين العشرين والواحد والعشرين مرحلة فريدة من مراحل تدفق المعلومات بأشكالها العديدة سواء المقروءة أو المسموعة أو المرئية، عن طريق أدوات تكنولوجية واتصالية أبرزها القنوات الفضائية وشبكة المعلومات الدولية والهواتف المحمولة، وأصبحت شعوب العالم –المنفصلة مكانيا- بموجب هذه الأدوات متصلة عن بعد عبر الشبكة العنكبوتية والهواتف المحمولة بإمكاناتهما الهائلة وغير المحدودة، ومرتبطة إلكترونيا وتكنولوجيا في العالم الافتراضي الإلكتروني، وأصبح الإنسان محاطا بكم هائل من المعلومات والأحداث على المستويين المحلي والاقليمي والعالمي بعد أن ألغيت افتراضيا الحدود الإقليمية بين الدول والثقافات بتأثير أدوات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات التي جعلت المحتوى الثقافي لكافة شعوب العالم متاحا للجميع دون قيود أو حدود ثقافية أو سياسية، وقد أدى ذلك الى نمو الفضول وحب الاطلاع لدى البعض اتجاه الآخر بعد أن أدركوا كونهم بالفعل جزءا من القرية العالمية يؤثرون فيها كما يتأثرون بما يتم فيها من أحداث سياسية واقتصادية وتكنولوجية وثقافية أيضا، جعلتهم يتابعون ما يجري في العالم ويتربحون بحذر تأثيراته عليهم بعد ان أيقنوا أنهم ليسوا بعيدين عما يحدث في العالم من حولهم على حد قول "سلوى السيد عبد القادر". وقد كان استخدام مختلف التكنولوجيات له تأثيرات هامة على المجتمع خلال العقود والقرون المتعاقبة وكانت التأثيرات المتصلة بتدفق المعلومات عبر الأدوات المشار إليها من أهم وأعمق التأثيرات؛ ففي العقود الأخيرة من القرن العشرين كانت الاستخدامات محدودة وكان من غير الممكن رؤية الآثار الناجمة والمزايا والعيوب بوضوح، وبقرب انتهاء العقد الأول من القرن الحادي والعشرين اتسع نطاق الاستخدام ليشمل كافة شرائح المجتمع، بعد أن أصبحت تلك الأدوات أسهل في الاستخدام وأقل في السعر علاوة على ظهور تطبيقات كثيرة جدا لتكنولوجيا المعلومات سواء في العمل أو الدراسة أو التسلية والترفيه داخل أو خارج المنزل، وقد تبين أن ما شهده المجتمع من تدفق تكنولوجي كان مصحوبا بتغير بعض القيم الدينية والأخلاقية والثقافية والحضارية، وأنماط السلوك الانساني المرتبط بها. (سلوى السيد عبد القادر، 2012، ص 13).

وفيما يخص مستجدات شبكات التواصل الاجتماعي يبدو أن الباحثة "فوزية الحربي" ترى أن الإنترنت ساهم في خلق فضاءات اتصالية افتراضية جديدة لم تكن موجودة قبل كالبريد الإلكتروني (e-mail)، منتديات النقاش (forum de discussion) والمدونات الإلكترونية (les blogs)، والردشة الإلكترونية (le chat)، والتعليق الإلكتروني على الأخبار والمقالات (les commentaires électroniques)، فسمّة الانترنت الأساسية أنها وسيلة مثلى للترباط بين الأشخاص على حد تعبير

"بيرنارد كونان Bernard Conein" تنقل المعلومات وتوصلها للأفراد الآخرين المتواجدون في الأطراف الأخرى من الشبكة بسرعة كبيرة وفي ظرف آني تزامني، بصرف النظر عن أماكن تواجدهم، أو ما يطلق عليه عادة بظاهرة (التخطي المعلوماتي)؛ أي أنها تتجاوز الفضاءات الجغرافية والزمنية. (فوزية الحربي، 2012، ص ص 1-2).

هذا الفضاء الجديد للاتصال الإلكتروني الذي خلقه الإنترنت لتبادل النقاشات واللقاءات بين الأفراد أطلق عليه "يورجن هابرماس J. Habermas" اسم الفضاء العمومي (Espace publique)، إنه فضاء مفتوح للجميع، يعيش فيه الأفراد معا حياة رمزية بعيدا عن الحياة الواقعية، لا يشعرون بأي حواجز، ويتواصلون فيما بينهم بكل حرية، وفي هذا التلاقي يمكن صياغة نقاشات متميزة، مصبوعة بكل تلك الشحنات التفاعلية العاطفية والشعورية، والتي ينبثق عنها تمازج في التفرغات المشحونة بتلك التعابير الاعتبارية وغير الاعتبارية التي تعبر عن واقع ما يترجم حاجات كثيرة فوضوية قد تؤدي في النهاية إلى ضبابية المشهد المطالب للمشاركين. والفوضى التعاونية التي تتسم بها الشبكات الاجتماعية والأنترنت إنما هي في الأساس فوضى في الفكر والثقافة والتقاليد وكل التظاهرات العاداتية والتقليدية المرتبطة بكل البيئات والثقافات التي تتلاقى عبر الشبكة، والغلبة تكون للثقافة التي تصمد أكثر والتي تحمل بذور الاندماج مع الثقافات المخالفة، وتعتبر الثقافات الغربية اندماجية هشة لأنها تخلت عن أهم مكون في خليطها الثقافي والحضاري وهو الدين، واللا دينية التي تمتاز بها تجعلها بلا هوية عند تلاقي الثقافات، وتعتبر الثقافة الإسلامية الأكثر حظا في الحصول على الدعم في حالات الفوضى الرمزية والأيقونية والفكرية واللغوية والثقافية، وتستمد الثقافة الإسلامية قوتها من المسمى الديني المتجانس (الاسلام). (يامين بودهان، 2018).

إن السر في كون شبكات التواصل الاجتماعي أداة للتلاقي الثقافي ووسطا لتداول المغزى الأخلاقي الإنساني والمعاني الدينية المقومة للسلوك يعود لكونها مواقع تبلغ اليوم تقريبا حوالي 25 سنة من الوجود، فخبرتها اكتسبتها منذ أن نشأت عام 1995 بفضل شبكة (class mates.com)، والتي أسسها "رانوي كونرادز"، كما تعود قوتها وتأثيرها للعدد الهائل الذي استقطبته منذ أول ظهور لها، فقد بلغ عدد مستخدميها خمسين مليون مشترك في أمريكا وكندا في ذلك العام، والأجدر بنا الإشارة إليه هو كون هؤلاء الرواد والمشاركين ينتمون إلى 200 ألف مؤسسة تعليمية تمثل جميع مراحل التعليم من الحضنة وحتى الجامعة في البلدين المذكورين، وزادت قوتها بعد أن حققت نقلة كبيرة جدا عام 2005، بظهور موقع (ماي سبائيس) الأمريكي، وقبله بعام ظهر موقع (الفيس بوك)، والذي تفوق على المواقع الأخرى، بحيث بلغ عدد مستخدميها 400 مليون شخص في العام نفسه، وهذا العدد عام

2004 يعتبر أكبر تجمع بشري في الغرب أنداك. ولنفترض أن هؤلاء أناس مثقفون أو متعلمون، ولننظر مثلا الى حجم التداول الثقافي والمعلوماتي بين هؤلاء، مع الأخذ بالاعتبار تلك النزعة الفردانية والتحرر الكبيرين التي يمتاز بهما الشباب في أمريكا وكندا، ولذلك نجدها اليوم أكبر متاهة ثقافية في المعمورة، وبعدها كانت أمريكية شمالية محضة أصبحت عالمية. وبحكم أن الخبرة في التعامل مع محتويات هذه الشبكات بيد من استخدمها أولا ومن اكتشفها فهو الأجدر بالتحكم بمحتوياتها وبامتلاك مكان الصدارة والدفاع أمام الثقافات الوافدة إليه، مع وجود ذلك الفارق الثقافي والتقني وتلك الهوة في التعامل مع فوارق العقلانية والهدفية المحددة والتوافقية بين الفكر والسلوك والثقافة بين الفرد الغربي وباقي الأفراد - وخصوصا المسلمين- حديثي العهد بالتقنية، والحقيقة تقول أن هدف "مارك زوكربيرغ" من تصميم هذا الموقع هو أن يكون ملتقى يجمع كافة زملائه في جامعة هارفارد الأمريكية، يستطيعون من خلاله تبادل الآراء والأفكار والصور، وبعد الزواج الذي لقيه هذا الموقع في جامعة هارفارد تم تطوير استخدامه، بحيث يسمح لكل من يريد استخدامه أيا كان موقعه، مما مكن ملايين البشر في كافة البلدان من استخدام هذا الموقع، ومن تم التبادل الثقافي الذي سيؤدي الى تغييرات في البنى الفكرية والثقافية والقيمية لدى المتصفحين، ولو بعد حين.(خضير البياتي، 2014، 331).

إن هذا التواصل الفضائي الحر يعد من الأبعاد الأكثر تجديدية في الإنترنت حسب الدكتور "الصادق رابح"، إذ أشار في دراسته المعنونة ب: "الإنترنت كفضاء مستحدث لتشكل الذات " إلى أن الإنترنت تمكن المتفاعلين، ضمن فضائها، من تجاوز الإكراهات الفيزيائية المرتبطة بسياقات الحضور وطقوس المكان، واستحداثها لسياقات افتراضية تطبع التبادل بطابعها، وقد غدا ممكنا، ولأول مرة في تاريخ الاتصال البشري، حسب قوله الحديث إلى الآخرين (الغرباء) ومحاورتهم بطريقة تتيح للفرد التكتّم التام على هويته الفعلية، والحضور غير التجسدي، وتضفي على التبادل صبغة تزامنية. ولقد تحدث "عزي عبد الرحمن" أيضا عن العوالم الافتراضية الرمزية للشبكة، فهي تمثل عالما رمزيا يبتعد عن الواقع المعاش وبالتالي فالإنترنت ظاهرة رمزية، يتعامل الفرد مع محتوياتها من خلال رمزية النص والصورة والفيديو، وبالتالي فهي ليست حقائق بذاتها بل هي تعبير عن حقائق، فلجوء الفرد إلى العالم الافتراضي الرمزي قد يكون تلقائيا أو رغبة في الإفلات من الواقع الذي يعيشه، الشيء الذي يفتح أمامه باب التخيل والتأمل ومعايشة عوالم متعددة غير مطروحة في محيطه بالضرورة، وقد يكون الفرد واعيا معظم الوقت أن عالم الإنترنت ليس بالضرورة حقيقة وقد يخلط بين العالمين، و قد يصل الحال بالفرد إلى التصاق شديد بهذا العالم الافتراضي، إلى درجة يشعر فيها أن عالم الانترنت هو العالم الحقيقي، أما العالم الواقعي فهو عالم هامشي، لا سيما إذا كان يقضي أغلب

وقته أمام الشاشة الإلكترونية مقيما علاقات افتراضية مع أشخاص وجماعات افتراضية. (فوزية الحربي، ص ص 6-7).

– مواقع شبكات التواصل الاجتماعي عهد جديد من العزلة الاجتماعية:

المتعارف عليه هو أن الشبكات الاجتماعية لا تنشأ من فراغ، فمنشأها الأصلي يخضع للاعتبارات الإيديولوجية. فمؤسسو الشبكة، سواء كانوا أفرادا أو جماعات، يتبنون أفكارا معينة، وتنشأ بناء على هذه الأفكار الشبكة. هذا لا يعنى أن هناك استاتيكية في البناء الشبكي، فقد تتغير التوجهات الفكرية لمؤسسي الشبكة. وتعتبر شبكة الفيس بوك مثالا على ذلك، حيث أسس الموقع "Mark Zuckerberg"، وهو طالب في جامعة هارفارد الأمريكية، خوفا من أن إدمانه للإنترنت قد يجعله يفقد أصدقائه بعد الانتهاء من الدراسة الجامعية، فأسس موقع Face Book، ثم توسع الموقع ليضم، إضافة لطلبة جامعة هارفارد، طلاب مدارس وجامعات أخرى، ثم واصل الموقع اتساعه إلى أن أصبح يمثل أكبر مواقع الشبكات العالمية. (نيرمين خضر، ص 2).

ويرى الدكتور "فايز الصياغ" برغم أنه من السابق لأوانه الحكم على ما يمكن أن تؤدي إليه ثورة الأنترنت في مجتمعاتنا الحديثة، فإن عددا من الدراسات السوسيولوجية قد بدأت تتقصى بعض نتائجها وآثارها، ففي دراسة أجراها الباحثون في جامعة ستانفورد الأمريكية عام 2000 على عينة واسعة تضم 4000 من البالغين من الجنسين، تبين أن مستخدمي الأنترنت يمضون أوقاتا قليلة مع الأفراد الآخرين في عائلاتهم أو في الجماعات المحلية الأخرى قياسا على من لا يستخدمون الأنترنت، ووجدت الدراسة الميدانية أن 55% من المستخدمين الأنترنت في البيت أو خلال العمل، وأن 20% من العينة هم من المستخدمين المنتظمين الذين يقضون 5 ساعات على الأقل في الأسبوع "على الخط"، وتلاحظ الدراسة اتجاهين مهمين: الأول هو أن استخدام الأنترنت يبتعد بالمستخدمين عن وسائل الإعلام والاتصال الأخرى، ويفيد 60% من هؤلاء أنهم لا يشاهدون التلفاز إلا قليلا، بينما يقول نحو الثلث أنهم يلاحظون إقلالهم من قراءة الصحف، أما الاتجاه الثاني، فهو أن الأنترنت قد بدأت تزيل الفواصل بين مجال العمل الرسمي والبيت، ويفيد نحو ربع من المستخدمين أنهم يقضون أوقاتا طويلة لأداء أعمالهم أثناء وجودهم في البيت، مع أن ساعات دوامهم في موقع العمل قد بقيت على ما هي عليه أو تزايدت. وتخلص الدراسة إلى أن الحياة اليومية قد تحولت إلى تيار مستمر يتمحور حول شبكة الأنترنت، ويستخدم العاملون والموظفون الأنترنت الآن خلال ساعات دوامهم الرسمي، وهم يميلون بالتالي إلى حمل مشروعاتهم معهم ومتابعتها في البيت بدلا من أن يخلفوها على مكاتبتهم عند انتهاء ساعات الدوام.

وهي النتائج نفسها التي توصلت إليها دراسة أخرى بأن شبكات التواصل الاجتماعي زجت بالأفراد في حالة من الاغتراب والعزلة الأسرية، حيث أجريت هذه الدراسة الموسومة ب: "استخدام شبكات التواصل الاجتماعي والعزلة الاجتماعية في أوساط المراهقين بالولايات المتحدة الأمريكية"، وشملت الدراسة المسحية 1787 من الشباب المنحصرة أعمارهم بين 19 و32 عاما، الذين يستخدمون إحدى عشر شبكة اجتماعية هي: فيس بوك، تويتر، غوغل، يوتيوب، لينكايدن، انستاغرام، بينتريست، سنابشات، فين، تامبلر وريديت.

- الإيديولوجيا التقنية في زمن العولمة، تفكيك بنية الأسرة وتجاوز أنماطها الفطرية البديهية: يلاحظ أحمد الكعكي (2003) "أن تيار العولمة في صراعه مع الحضارة الإسلامية العربية وفي ظل انتشار مواقع شبكات التواصل الاجتماعي والوسائل الإعلامية غير المباشرة يحاول ضرب أسس البناء الاجتماعي وخصوصا تفكيك عرى الأسرة، والإعلام في متناول اليد وذلك بهدف تدمير الخلية الأولى في البنية الإسلامية العربية، التي يسهل بعدها التسلل الى سائر خلايا هذه البنية لتفكيكها ومن ثم إعادة ترتيبها حسب النمط الذي يريده تيار العولمة". (ص 157).

وعلى الجانب الآخر نرى أن تيار العولمة يشدد على الدعوة إلى التسامح مع ما يسمى "الأسرة اللانمطية" وخصوصا الأسرة التي تتكون من والد واحد، وهو المرأة غير المتزوجة أصلا، إنما الطفل أو الأطفال الذين معها جاؤوا عن طريق الزنى المعترف به حسب مذاهب "العولمة السوقية" من نماذج الأسر اللانمطية، تلك التي تتكون من جنس واحد (رجلين أو امرأتين)، وهذا طبعا أصبح مدعاة للتصادف معه عبر مواقع التواصل الاجتماعي.

لقد استقوى تيار العولمة مع ظهور المواقع الاتصالية، وقد ساعد على ذلك الهوى الذي ينتشر عبرها وكثرة الحيل والخدع والأحلام، ولقد استأثر الزور والبهتان بكثير من مضامينها، وأصبحت الأعمال مدعاة سخرية ومحل رياء، حتى فكرة الخير أصبحت محل رياء من فاعليه ومحل ازدراء من منتقديهم، ولنكن أكثر صراحة ولنقل أن هذه المواقع أصبحت مجالا واسعا مفتوحا للشذوذ رغم ما يقال هنا وهناك من تصريحات لإدارة الفايستوك من أنها ستمنع الشذوذ والصور الفاضحة عبر صفحاتها. لقد صارت اللاأخلاقية ديدن الكثيرين عبرها، وفي هذا المجال نشير الى ما رواه الحسن البصري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سيكون بعدي قوم تحدث قلوبهم وتصدق أحلامهم وتتولى أعمالهم يتعلمون الزور أنواعا، يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء فإذا فعلوا ذلك فانتظروا النكال من الله- عز وجل" (معجم المؤلفين ج6، ص 152).

إن التسامح في ظل العولمة مع ما يسمى " الأسرة اللانمطية"، والتي يتم الترويج لها بقوة عبر مواقع التواصل الاجتماعي، يتجاوز قواعد الفطرة في رابطة الزواج، وهي حفظ النوع العضوي والحيوي، وحفظ النوع النفسي والعقلي، وحفظ النوع الاجتماعي، بالإضافة الى أن هذه الأسر لا تعترف بالقواعد الشرعية أصلا القائمة على حفظ نوع الإنسان الصالح، وقاعدة التكافؤ بين الزوجين في إطار الإيمان بالله تعالى، علما أن كثيرا من رواد مواقع التواصل الاجتماعي قد تجاوزوا فكرة الإيمان من أصلها ولم يعد يعنهم الإيمان ولا فكرته، ولم تعد تعنيهم مكارم الأخلاق. اليوم عبر مواقع التواصل الاجتماعي لا نجد الدعوة الصريحة الى الالتزام بتربية الطفل بمجرد مولده تربية سليمة باتجاه سلامة بدنه وشعوره ولغته وعقله وذلك لتقبل الإيمان في أعماله، وعلى العكس نجد الدعوات من أطراف مختلفة وخصوصا التي لا تدين بالإسلام - وما أكثرها- إلى ما يسميه تيار العولمة بالأسر اللانمطية، وعليه فإن المقارنة غير متكافئة بين مكارم الأخلاق الاجتماعية للأسرة الإسلامية وبين تجارب لا تمت بصلة الى الأخلاق الاجتماعية في الأديان السماوية كافة، بل هي نابعة من فكر " التحرر السوقي" الذي سيؤدي في النهاية الى تدمير حرية الفرد، والفطرة الإنسانية، ومن ثم إلى الفوضى الاجتماعية ومخالفة قوانين الطبيعة، لتصبح معها الأخلاق حسب المذاهب السوقية ترتبط بالمصلحة العامة المادية البحتة، وبذلك تقترب خطوة من أفكار «داروين» التي تقول بأن الانسان لا يتمتع بأي خصائص فريدة من حيث النوع، وإنما هو حيوان بقدره عالية من الذكاء المادي العضوي البحث، وهو ما يسميه داروين بالانتخاب الطبيعي (Natural Sélection)، فالطبيعة هي مع الأقوى والأصلح في عملية الصراع من أجل البقاء، علما أن فكرة التطور (نظرية التطور) لداروين تعرف انتشارا كبيرا بين الشباب والمراهقين المسلمين على مواقع التواصل الاجتماعي ويتم مشاركتها والتعليق عليها والتفاعل معها كثيرا عن جهل أو عن دراية، والأغلبية المطلقة من هؤلاء لا تعي حقيقة نظرية داروين التي تنفي فكرة الخلق الالهي للإنسان وتنتقص إنسانية العنصر البشري وقدرته على التمحيص العقلي في تعامله مع الطبيعة. وفي هذا السياق تتداخل أفكار «داروين» مع أفكار "سيغموند فرويد" القائلة إن الدافع الجنسي (الليبيدو) هو الأقوى عند الإنسان، مع أفكار «داروين"، فالإنسان كالحیوان يجب إشباعه باللذة الجنسية دون أي تفكير ببناء الأسر، وإنجاب الذرية الصالحة، أنها لذة جنسية من أجل اللذة فقط، وعدم ممارستها معناه عند "داروين" الكبت الجنسي. إنها دعوة صريحة الى الإباحية الكاملة، ولو أدى ذلك الى قتل النفس التي حرم الله تعالى قتلها عبر «الإجهاض"، ويمكن أن تكون هذه اللذة مباحة في إطار «الشذوذ الجنسي"، فهذا لا يهم إذا كان يؤكد حرية الفرد في إطار المذاهب السوقية المعولمة حاليا. إن مثل هذه الأفكار التي يتم الترويج لها عبر منصات التواصل الاجتماعي وتصل بسلاسة الى الأطفال

والمراهقين والشباب في مخادعهم قد تخدعهم على نحو ما خصوصا في خلواتهم وفراغاتهم اللاروحية، وهذا قد يجعلهم مع مرور الوقت سيعيدون إعادة تشيل وصياغة أفكار نقدية للفكرة الدينية التي تتجاوز فكرة الحيوانية والغريزية واللاعقلانية والشهوانية بفكرة الصبر والامتناع عنها وبغض البصر وبمجاهدة النفس وبالأخذ بعين الاعتبار فكرة المداينة والقصاص والعدالة الالهية التي ستقتص من كل فاعل لها. اليوم عمدا يتم المساس بأهم خلية مجتمعية يقوم عليها البناء المجتمعي ككل، وهي الأساس في البناء الأخلاقي للفرد، وفي التوجيه الديني والتنشئة على المنهج الاتصالي الأنسب للأطفال. إن استهداف الأسرة هو استهداف لكل المتكامل من الأنساق جميعها، إذ العلاقة التكاملية بين كل هذه الأنساق والأجزاء قد يجعل من يقوطها هزيمة كبرى للمجتمع وللحضارة والإنسانية، فالدعوة للتسامح مثلا مع "الأسر اللانمطية" هو تفكيك عرى الأخلاق الاجتماعية للأسرة ليس في الاسلام فقط، بل في المجتمعات الإنسانية كافة، من خلال تهديم السلطة الأبوية في الأسرة، وتشويه دور الأم كأم، وإطلاق الحرية الجنسية للأولاد منذ سن السادسة عشرة أو قبلها، وهذه الأسر اللانمطية التي يروج لها تيار العولمة عبر الوسائط الاتصالية (مواقع التواصل الاجتماعي) هي إحدى نتائج "ثقافة الموت" للمجتمعات الإنسانية كافة، كما وصفت في الغرب الأوروبي. (يحي أحمد الكعكي، ص ص 173-175). وعلى العموم يمكن القول إن الحديث عن استخدام شبكات التواصل الاجتماعي، للتواصل بين الشعوب والأمم والثقافات سواء المتشابهة أو المتقاربة، يظل في حاجة إلى مزيد من الترويج العقلي والبحث الثقافي والنقد الفكري، ذلك لأن مثل هذه التكنولوجيا حديثة العهد لكنها عميقة التأثير، لواحقها وتطبيقاتها سريعة الظهور والتطور، خصوصا وانها أفرزت جدلا واسع النطاق، وأثارت مسائل وإشكاليات عديدة كإشكالية الأخلاق في علاقتها بتشكيل الهوية والهوية الثقافية بالتحديد، ففي ظل التغيرات الحاصلة في شتى مناحي الحياة، وزيادة التبادل بين بني البشر من مختلف الثقافات من خلال وسائل الاتصال المتعددة، التي فرضت مبدأ السرعة في كل شيء، وحصرت الفرد في عوالم افتراضية تقوم على ثقافات متخطية للحدود، عرفت في ظلها الثقافة أعتى أخطار الاندثار، نظرا لما تملكه هذه التكنولوجيا من قدرة على فصل المكان عن الهوية واقتحام الحدود الثقافية والسياسية وإضعاف الشعور بالانتماء المحلي، وتعمل على إنتاج هويات غير مرتبطة لا بمكان ولا بثقافة ولا دين.

هناك قلق متزايد حول شكل الهويات الثقافية في المستقبل، خاصة بعد انفتاح العالم إعلاميا وثقافيا وبعد أن تحولت المعارف إلى سلع ثقافية كادت تهدد تلك الهويات الثقافية واللغوية، وبعد أن انفتحت أبواب العالم على مصراعها بفعل تكنولوجيا الاتصال وأحدثت ما أحدثت من أثار بعضها

إيجابي والآخر سلبي، هنا يثار السؤال هل يمكن الحديث عن هويات ثقافية مميزة ومتفردة لدولة ما أو شعب ما، في ظل هذه الطفرة التكنولوجية، وعن أشكال الهويات الثقافية المتوقعة؟ وإذا كانت شبكات التواصل الاجتماعي، أهم مفرز لهذه التكنولوجيا، وأكثرها استخداما من بين مختلف لواحقها، فإن الحديث عن استخدام شبكات التواصل الاجتماعي للتواصل بين الشعوب والأمم والثقافات سواء المتشابهة أو المتقاربة، يظل في حاجة إلى مزيد من الاهتمام والدراسة، ذلك أن مثل هذه التكنولوجيا حديثة العهد لكنها عميقة التأثير، لواحقها وتطبيقاتها سريعة الظهور والتطور، لذلك لا يجب تفويت الحديث عن طبيعة آثارها سواء الإيجابية أو السلبية، هذه الأخيرة- الآثار السلبية- التي أفرزت جدلا واسع النطاق، وأثار مسائل وإشكاليات عديدة من أبرزها إشكالية الهوية والهوية الثقافية بالتحديد. ففي ظل التغيرات الحاصلة في شتى مناحي الحياة، وزيادة التبادل بين بني البشر من مختلف الثقافات من خلال وسائل الاتصال المتعددة، التي فرضت مبدأ السرعة في كل شيء، وحصرت الفرد في عوالم افتراضية تقوم على ثقافات متخطية للحدود... عرفت في ظلها الثقافة أعتى أخطار الاندثار، نظرا لما تملكه هذه التكنولوجيا من قدرة على فصل المكان عن الهوية واقتحام الحدود الثقافية والسياسية وإضعاف الشعور بالانتماء المحلي، وتعمل على إنتاج هويات غير مرتبطة لا بمكان ولا بثقافة ولا دين.

– وقفة عند مقولتي البناء الشبكي والاعتماد المتبادل من وجهة نظر نقدية قيمية أخلاقية:

يعتبر البناء الشبكي الذي تمتاز به شبكات التواصل الاجتماعي الذي يمثل الرابط بين مجموعة من الحزم الاجتماعية المتمثلة في الأفراد أو الجماعات أو الكيانات عاملا مساعدا على تشكيل تجمعات منسجمة في كثير من المعاني الثقافية والقيمية والفكرية والمرجعية، علما أنه يمكن اعتبار الإنترنت وتطبيقاتها اليوم إطارا تنظيميا عاما تندرج وتتجسد فيه كافة أوجه السلوك الإنساني، كما يمكن أن تتضمن مجموعة النظم الاجتماعية ذات القواعد السلوكية التي تحكم الأنشطة الإنسانية المتعددة، ويمكن اليوم بفعل قوة الإنترنت على التعبئة والجذب أن تنتظم في إطارها العلاقات الإنسانية كلها، كما تعبر الإنترنت اليوم وشبكتها المختلفة عن الأنشطة والتفاعلات الإنسانية النمطية والمستقرة والمتراصة التي يمكن أن تنشئ نظاما اجتماعيا مقننا أو غير مقنن. ويتم التفاعل الاجتماعي عبر مواقع التواصل الاجتماعي في مستواه الافتراضي بين الأفراد بعضهم بعضا، وعادة ما يرتبط التفاعل بالجانب الترفيهي أو التبادلي أو التعليمي أو التلقيني أو التحسيني أو التوعوي أو الإعلامي أو الهروي، وهذا طبعا بين الجماعات والأفراد، وقد يهمل الأفراد أو تهمل الجماعات تفاعلات مع أفراد آخرين داخل الشبكة لأغراض غير ثقافية وغير دينية، وقد يصل الأمر إلى غياب التفاعل

القيمي تماما لدى بعض الأفراد داخل الشبكة، ويعتمد البناء الشبكي على قوة الروابط (الروابط بين الأفراد أو الجماعات، والتي يتمخض عنها متانة البناء) وكذلك على خواص الروابط (التي تتنوع بتنوع مجالات الاهتمام، والتي تتعدد بدورها داخل البناء الشبكي)، ومجالات الاهتمام الأولى على شبكة الإنترنت وشبكاتها المختلفة ترتبط بما دون الأمور الدينية أو الأخلاقية، إذ تتجاوزها تماما، علما أن الدعامة الاتصالية على الشبكة تتعزز بالممارسة، ولذلك فأغلب المتصلين أو المتشاركين في الشبكة لا يعانون من ضعف الاتصال، بل ويتحكمون في الأنماط الاتصالية ويفهمونها بعدما اكتسبوها بالتجربة. والشيء اللافت للانتباه والذي يجب الوقوف عليه هو أن البناء الشبكي يتمحور في مجالين، الأول هو البناء الشبكي العالمي، المتمثل في بنية تفاعلية عالمية تتصل بموضوعات لا تخص جماعة إثنية أو أقلية معينة، ولكن تنصهر كل الأقليات والتباينات الثقافية داخل بوتقة التفاعل العالمي للشبكة، وعليه تصبح الثقافة عالمية لا تعترف بما دونها من الثقافات المحلية وهو الذي نخشاه، والثاني يتمثل في البناء المحلي للشبكات الاجتماعية، وهو بناء ضعيف في تركيبته الاتصالية وفي محتواه الثقافي ومضمونه القيمي، وهنا يظهر دور الجماعات المحلية التي خلقت لنفسها وحدات داخل التفاعلات العالمية، والتي يتمحور التركيز فيها على الموضوعات والسياسات المحلية وكذا الترويج للثقافات المحلية وصياغة المحتوى القيمي والثقافي والأخلاقي والديني الذي يعبر عن رؤية حياتية متكاملة تستجيب لكل شروط التعايش السلمي والتضامن الإنساني البعيد عن كل انتماء ضيق، كما يمكن لهذه الجماعات المحلية أن تروج للعناصر الثقافية التي تخص جماعات بذاتها في إطار اهتمام داخلي. وتخضع البنية الشبكية في هذا المحتوى إلى التجانس الثقافي إلى حد كبير (Garry (Robins,2008, pp 5-6).

ولابد في هذا الصدد من التأكيد أن الأفراد والجماعات في إطار الشبكات الاجتماعية لهم القدرة على التفاعل مع البنية الكوكبية والبنية المحلية في وقت واحد، وهنا يتجهن البعد الثقافي للأفراد ويجمع بين المحلية والعالمية، وهو عند البعض من المنفتحين والحدائثيين ليس بالشئ الخطير، ولكن ذلك من وجهة نظرنا يترجم بوضوح فكرة الثقافة الرمزية الهجينة غير المؤسسة على المعاني الروحية النقية والرموز الثقافية المعتدلة والأبعاد الأخلاقية المربية والمقومة للسلوك. والثقافة الرمزية (Cyber Culture) تتلخص في أنها ثقافة المتفاعلين في السياقات الافتراضية، مع ضرورة الوقوف عند السياق الافتراضي غير الواقعي، الذي هو تجنيس ثقافي للآخر تحت مسميات كثيرة، وهذا التجنيس يعمل بلا تكلفة ولا يدفع ضريبة ثقافية تتمثل أساسا في السماح بالامتزاج بالثقافات الأخرى، وبهذا نعتقد أن الثقافة الغربية التي هي ثقافة رمزية وثقافة تقنية وثقافة دينية تزداد قوة بإضافة لا ثقافات

الأخرى دون أن تتأثر بها بعد معاملتها للثقافة الأخرى بنوع من الاحتواء لا الاندماج أو الاختلاط. وبالوقوف عند مقولة الاعتماد المتبادل الذي يمثل مقولة أساسية مرتبطة بتحليلات الشبكات الاجتماعية، فإن الفرضية الأساسية للمقولة التي تبلور في الجملة الآتية "يلعب الاعتماد المتبادل دورا أساسيا في تبادل المعلومات بما يؤثر على المعتقدات والقرارات الشخصية والجماعية والمنافع وحتى الاحتجاجات والإضرابات" هي فرضية أقرب إلى القبول والاستساغة اللفظية والمعنوية، إذ المعلومات وتبادلها هو شيء آلي واعتباطي يتم بلا تكلفة كبيرة، وهذا التبادل غير المكلف يزيد كلما كانت الاتاحة له كبيرة، وكلما خصص له وقت وجهد أكبر، مع إمكانية تغذيته ببعض الأنماط الثقافية والرمزية، وهذا له علاقة مباشرة بالإشارة إلى العقائد واللغات والسلوكات والأنماط الحياتية وكذا الاهتمامات الشخصية والعادات والتقاليد الاجتماعية، وهذا طبعا يمزج الثقافات ويعانقها ويتخلص من بعض الموانع الثقافية التي تتجسد في عدم فهم الرموز والأيقونات والإشارات ولغات التعبير والمعاني وسياقاتها وكذا اللغة المستخدمة، إذ يمكن تفكيكها بسرعة وبفعالية وبقوة، في ظل التقارب اللغوي والتفاعل المستمر والتبادل المتعدد والتفكير شبه المنسجم والأعراض النفسية والاجتماعية والعاطفية والمصلحية المتشابهة، فعندما تتلاقى الرؤى يمكن للتبادل أن يتعزز، وهذا على كل حال لا يكون متاحا دوما بقدر ما يكون متاحا كلما كانت ظروف الاتصال متاحة وسهلة وبدون عناصر تشويش، هذا مع الأخذ في الاعتبار أن تشكل الاعتماد المتبادل يكون بحسب قوة الروابط بين الأفراد والجماعات، وتتفاوت قوة الروابط بالدوافع المختلفة لاستخدام الشبكات الاجتماعية، فالدوافع الدعوية والتربوية والتثقيفية مثلا تختلف عن الدوافع الترفيهية والتسلوية التي بدورها تختلف عن الدوافع الاجتماعية والتي تختلف بدورها عن الدوافع السياسية، مع ملاحظة دينامية العلاقات عبر الشبكات الاجتماعية، وهذه الديناميات من الممكن أن تضعف، لأنها مرتبطة باهتمامات الأفراد التي ربما تضعف قوتها بما يؤثر على فاعلية الاعتماد المتبادل (David. Siegel, 2009, pp 124-125).

خاتمة: يمكننا في الأخير الإشارة إلى أن التطور المستمر في التقنية أدى إلى ترجمة لفروض نظرية مارشال ماركوفان (العالم قرية صغيرة) التي هي في الأصل نتاج لإيديولوجية يعتقد فيها صاحبها أن التقنية من مخرجات الحضارة الغربية القوية، ولا بد للتقنية هنا أن تتسم بالقوة كقوة الثقافة التي أنتجتها، ولذلك فالتقنية حسبها هي الرسالة، وتكنولوجيا الاتصال كسرت الحدود والمسافات والمستويات، وهي بهذا اختزلت المحلي وحصرت الثقافات المحلية وجعلتها محصورة في نطاق ضيق لا يمكن لها أن تظهر وتقاوم سيل العولمة الثقافية إلا إذا رضيت بالاندماج في الثقافة القوية الوافدة،

وعدم الاعتراف هذا بالمحلي هو في الأصل اختزال للثقافات وحواملها القيمية الأخرى في مجرد عادات وتقاليد وسلوكيات مجردة من أي قوة ذاتية تحقق لها الاعتراف في بيئة الكترونية مزدحمة بالثقافات الأخرى، علما أن الثقافات الغربية الغالبة عبر الفضاء السيبراني هي في الأصل ثقافات غازية تحمل خصائص الاستعلانية وترى في باقي الثقافات مجرد أزياء وأفكار وأحلام سقيمة، لا محالة ستزول وتذوب في زخم الثقافة الغربية المادية التبادلية التي عززتها شبكات التواصل الاجتماعي التي تعتمد خاصية التفاعل الدائم والمتواصل. وشبكات التواصل الاجتماعي كأهم مخرج من مخرجات الثورة التكنولوجية الاتصالية في العصر الإلكتروني، كان لها دور في تطوير الإنتاج الفكري والثقافي وتقديم رسائل جديدة بألوان جديدة وغايات جديدة وتطويرها وعولمتها، وهو في الأصل نشاط إيديولوجي بأدوات جديدة تتعدى في تأثير الأدوات الإيديولوجية التقليدية، وباعتبار أن الإنسان حر في اختيار الوسيلة المناسبة، يضاف إليه حجم المعلومات المتاحة وكذا الفرص المتوفرة في الحصول على التكنولوجيا الاتصالية الجديدة والقدرة المادية في التوصيل بخدمة الشبكات الاجتماعية، كل هذا يجعل الحواجز منعقدة بصفة شبه كلية في الوصول إلى الخدمة التفاعلية والتخلص من التلقي السلبي عبر وسائل الإعلام الأخرى والانتقال إلى التلقي الإيجابي أي إلى (عملية التفاعل)، وهذا يدفعنا إلى قراءة وحيدة وهي أن المشارك (وخصوصا الغربي منه) لم يعد سلبيا، إنما هو نشط انتقالي، ذو أغراض مختلفة تنتقل أغراضه من وسط تفاعلي إلى آخر دون رصد، وهذا العمل الإيديولوجي الناعم قد يعزز من فعل الأدلجة، وقد يجعل للتقنية سلطة أكبر من سلطة الثقافة، وقد يعزز من فاعلية المعلومات ذات التوجه الإيديولوجي المصلحي، وهذا طبعا على حساب الرساميل والأطر الاجتماعية والقيمية التي يمكن أن تساهم عوامل الزمن في تعزيزها أو الحد منها، حسب القوة والضعف، والهدف الغرض والغاية، وحسب الزخم التناولي.

قائمة المراجع:

01-المراجع العربية:

- آرثر اسا بيرغر، وسائل الاعلام والمجتمع، وجهة نظر نقدية، (صالح خليل أبو أصبع، ترجمة)، (د س).
- بيبورديو، (2004). التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، (درويش الحلوجي، ترجمة)، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، ط1، دمشق.

- حواس محمود، (2002). *الثقافة والأخلاق والتحديات التكنولوجية*، أبحاث الندوة السنوية لجمعية البحوث والدراسات «العرب وتحديات المستقبل»، اتحاد الكتاب العرب، جمعية البحوث والدراسات، دمشق.
- خالد غسان يوسف المقدادي، (2011). *ثورة الشبكات الاجتماعية*، ط1، دار النقاش للنشر والتوزيع، الأردن.
- خضير البياتي، (2014). *الاعلام الجديد، الدولة الافتراضية الجديدة*، دار البداية ناشرون وموزعون، عمان-الأردن.
- سلوى السيد عبد القادر، (2012). *الأنثروبولوجيا والقيم*، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، جمهورية مصر العربية.
- سميرة شيخاني، (2010). *الاعلام الجديد في عصر المعلومات*، مجلة جامعة دمشق، العدد الأول +الثاني.
- عبد الغفار مكاوي، (1993). *النظرية النقدية لمدرسة فرنكفورت/تمهيد وتعقيب نقدي*، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، ج13.
- عبد الغفار مكاوي، دس.
- غوستاف لوبون، *الأسس النفسية لتطور الأمم*، (أكرم زعيتر، ترجمة)، دس.
- فاروق حمادة، *مكارم الاخلاق من مصادر السنة للإمام الطبراني*، ط3، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، دس.
- فوزية الحربي، (2012). *قضايا السعوديات في الفاييبوك*، دراسة حالة على مجموعة «خلوها تعدي»، ورقة مقدمه للمنتدى السنوي السادس للجمعية السعودية للإعلام والاتصال " الإعلام الجديد ... التحديات النظرية والتطبيقية "، جامعه الملك سعود. الرياض.
- فوضيل عدنان، *خطابات الفاييبوك وخطاب المثقف، مقارنة سيميائية ثقافية*، (مذكرة ماجستير في النقد الثقافي، جامعة مولود معمري تيزي وزو الجزائر، كلية الآداب واللغات، قسم الأدب العربي)، (دس).
- لونيس بن علي، *لذة الكتابة، قراءات في الراهن الفكري والنقدي الأدبي*، (دس).
- محمد عابد الجابري، (2010). *التواصل نظريات وتطبيقات، سلسلة فكر ونقد*، الشركة العربية للأبحاث والنشر، لبنان، ط1.

- محمد عبد الحفيظ، (2005). *دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة*، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، ط1.
- محمد مليك؛ صالح دليّة، (2015). *شبكات التواصل الاجتماعي والهوية الثقافية لدى الشباب الجزائري*، الملتقى الوطني الأول حول: العلوم الاجتماعية قضايا الشباب في المجتمع الجزائري جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي.
- مصطفى الضبع، (2005). *نص جديد ومتلقي مغاير، قراءة في الملامح الجديدة للكتابة والتلقي*، مؤتمر أدباء مصر في الأقليم بورسعيد، مصر.
- ياسين حسين الويسي، *إشكاليات الفلسفة الأخلاقية والتربوية في العصر الرقمي*، الجامعة المستنصرية، دس.
- ياسين حسين الويسي، *مقدمة فلسفية*. (دس).
- يامين بودهان، (2018). *مجتمع المعلومات وظهور أنماط الاتصال الجديدة في الوطن العربي*، بحث مقدم لمؤتمر الاتصال والتغيير الاجتماعي، الرياض.
- يحي أحمد الكعكي، (2003)، *العولمة الإسلامية العربية*، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ط2.

02-المراجع الأجنبية:

- Annica, Santdstro, (2008), *the Performance of Policy Networks. The Relation between Networks Structure and Networks Performance*, the Policy Studies Journal, Vol 36. Issue 4, Published By Wiley Periodicals, Oxford, P P 497, 505.
- David. Siegel, (2009), *Social Networks And Collective Action*, American Journal Of Political Science, Vol 53, Number 1, January,, P P 124-125.
- Garry Robins, Yoshikashima, (2008), *Social Psychology and Social Networks: Individuals and Social Systems*, Asian Journal of Social Psychology, Vol 11, Black Well Publication, P P 5-6.